مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق

التاريخ المنصوري

تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان

تأليف أبي الفضائل محمد بن علي بن نظيف الحموي

عني بنشره وتحقيقه

الدكتور أبو العيد دودو

مراجعة

الدكتور عدنان درويش

مطبعة الحجاز بدمشق

١٤٠١ هـ = ١٩٨١ م

مقدمة الكتاب

تمهيـــد :

محمد بن نظيف الحموي ، كما يتضح من كتابه « التاريخ المنصوري » مؤرخ كبير عاش أحداث عصره ، وشاهدها عن قرب ، وأتيح له أن يشارك في البعض منها ، فتركت في نفسه أثراً وأي أثر ، فحرص على تسجيلها وروايتها بإسهاب وإطالة حيناً ، وبإيجاز واختصار حيناً آخر ، حسب المنهـج الذي رسمه لنفسه « والهدف الذي أراده » « من تأليف تاريخه ، والغاية التي رمى إليها » . ويبدو أن خطته كانت تقضي بأن يتعرض لما أهمله غيره من المؤرخين ، وسكتوا عنه تماماً أو اكتفوا بالإشارة إليه دون الوقوف عنده طويلاً ، فأورد تفاصيل قيمة عن حوادث القرنين السادس والسابع الهجريين ، يتعذر على الباحث أن يعثر على نظيرها «ويفوز بمثلها » في « بقية » المؤلفات التاريخية الأخرى ، سواء كانت معاصرة أو لاحقة . ولعل هذا بالذات ما يجعل له قيمة خاصة « ومكانة ممتازة » بين معاصريه ، وهم ليسوا قليلين ، ويرفع من شأنه وأهميته مصدراً لا غنى عنه في دراسة العصر الأيوبي والحملة الصليبية الخامسة . فمن حقه إذن أن يكون

معروفاً لدى الباحثين المحدثين ، « ويغدو في متناول أيديهم » يفيدون منه في كل آن ، « ويرجعون إليه كلما لزم الأمر » .

وكتاب « التاريخ المنصوري » جدير بأن ينضم إلى مجموعة المصادر التي تؤرخ للدولة الأيوبية ، وتصف ما كان لها من علاقات الصداقة والود أو الخصام والعراك والصخب مع البلدان المجاورة لها ، وتتحدث عن الصراع الذي نشب بين ملوكها وكاد أن يقضي عليها بعد موت مؤسسها صلاح الدين . ذلك أن ابن نظيف لا يلتفت إلى ما يقع خارج حدود هذه الدولة إلا نادراً ، ليقدم خلاصة موجزة عنه ، ثم قلما يعود إليها بعد ذلك . وبما أن كتابه يعالج فترة ما بين سنتي ٥٨٩ هـ = ١١٩٣ م و ٦٣١ هـ = ١٢٣٤م، بصورة غير وافية في أغلب الأحيان ، نظراً لأنه اختصره من تاريخه الكبير المفقود ، فالأولى به أن يعتبر من جهة أخرى تتمة لتلك المصادر ، وتكملة لها ، من شأنها أن تلقي أضواء جديدة على ما ورد فيها ، وتضيف إليه إضافات كثيرة ، وتوضح ما غمض منه ، واستعصى على الدارس فهمه .

* * *

حياة المؤلف :

لا نعرف عن حياة ابن نظيف إلا الشيء القليل ، وهذا الذي نعرفه عنه لا يطلعنا على تاريخ ولادته وظروف نشأته وتكوينه ولا على تاريخ وفاته . فالقدماء والمؤرخون لم يترجموا له كما ترجموا لغيره ممن هو أقل منزلة منه في كتبهم التي وصلت إلينا ، ولا نكاد نجد له ذكراً عند معاصريه، كأنه لم يعش قريباً منهم ، ولم يتردد على المدن التي ترددوا عليها ، ولم يتصل بمن اتصلوا به . ولو أن المؤلف لم يرو لنا شيئاً عن حياته لظل مغموراً غير معروف .

ورد اسمه الكامل على ظهر الورقة الأولى من تاريخه كما يلي : «العبد المملوك أبو الفضائل محمد بن علي بن عبد العزيز بن علي بن مزهر بن بركات ابن علي بن نظيف الحموي الكاتب الملكي المجاهدي» . فهو إذن ينتسب إلى مدينة حماة ، وطنه الأصلي من ناحية ، وإلى الملك المجاهد ، صاحب حمص ، المتوفى سنة ٦٣٧ هـ = ١٢٤٠ م ، من ناحية ثانية ، ولكنه تخلى عن هذه التسمية الأخيرة في كتاب آخر له ، سأشير إليه عند الحديث عن آثاره . كتب ابن نظيف عن نفسه لأول مرة في حوادث سنة ٦٢٥ هـ = ١٢٢٨ م (انظر الورقة ١٨٠ آ ، المتن ص ٢/١٧٤) فقال :

« وفيها وصل قاصد صاحب ماردين إلى الكمال بن مهاجر ، يطلب من يصل بحلفه للأشرف ، فأجمعوا رأيهم ، بعد مراسلة الأشرف بذلك ، على أن اتفق الكمال بن مهاجر ، والملك الحافظ ، وعز الدين أيبك ، وقايما ، نائب السلطان الأشرف ، على محمد بن نظيف الكاتب الحموي ، كاتب الحافظ ووزيره ، والأمير شمس الدين خاص بك التكريتي يحضر اليمين ، فحلفه .. » .

يتبين من هذه الفقرة أن المؤلف كان ذا شخصية بارزة في مجتمعه ، لها أهميتها وخطرها بين رجالات عصره ، فهو يشغل منصب كاتب ووزير في دولة الملك الحافظ بن العادل ، صاحب قلعة جعبر ، المتوفى سنة ٦٣٩ هـ = ١٢٤١ م ، ويعهد إليه القيام بمهمة سياسية ، هي تحليف نصير الدين أرتق أرسلان ، صاحب ماردين ، المتوفى سنة ٦٣٦ هـ = ١٢٣٩ م ، للملك الأشرف ، فيقوم بمهمته خير قيام . ثم يعود ابن نظيف الحموي فيخبرنا بعد صفحات قلائل بالتطور الذي طرأ على علاقته بصاحبه الملك

الحافظ ، ويحدثنا عنه حديثاً في منتهى الصراحة والصدق ، وإن اكتنف بعض عباراته شيء من الغموض والالتباس (انظر ص ٢٠٦ ب وما بعدها ، المتن ص ٢٢٣ / ٩) ، فيقول :

« وفيها في عشرين ذي الحجة (سنة ٦٢٧هـ = ٣١ أكتوبر ١٢٣٠ م) بأرجيش قبض الملك الحافظ على كاتبه محمد بن نظيف الحموي ، وأخذ جميع ما يملكه من مماليك ودواب وذهب وقماش ورخت وغيره ، وحمله إلى قلعة جعبر ليلًا ، وذلك لكثرة سكره . وكان سبب ذلك أنه طلب أحد مماليكه فما امتنع عليه[1] ، وقبل له غير مابذله من نفسه في ذلك القبول، ووقع النشب به ، فلما أفاق من سكرته ، ندم وما بقي يمكن إلا الاتمام لما فعله . وكان ذلك كله بعد أن خلع عليه خلعة العيد ، وأخوه أيضاً » .

وللقارىء أن يستنتج من هذه الفقرة ما يريد ، ويفهم منها ما يلوح له أقرب إلى المنطق والمعقول . المهم ، فيما أعتقد ، أن ابن نظيف اعتقل وسجن وصودرت أمواله وأملاكه كلها بسبب سوء تصرفه ، وشذوذ سلوكه ، وإتيانه ما لا يليق بشخصه ، ويتلاءم مع مقامه ومنزلته . ويلاحظ هنا أن المؤلف يتحدث عن نفسه دوماً بضمير الغائب ، فجاءت عبارته غامضة ، تستدعي كثيراً من الحذر في فهمها وتفسير مدلولها . يضاف إلى ذلك أن توالي الضمائر يربك الدارس ويجعله يشك في صحة النتيجة التي يتوصل إليها والحكم الذي يصدره . وقد ذهب المستشرق الرومي بطرس غريا

---

(١) انظر الخبر فيما سيأتي ص ٢٢٣

زنيوبيج (انظر التاريخ المنصوري ، موسكو ١٩٦٠ ، ص ٩ من المقدمة الروسية) إلى أن المقصود بكلمة «أخوه» الواردة في آخر الفقرة السابقة، هو أخو المؤلف ، إلا أن هذا في نظري يفتقر إلى دليل يقوم عليه ، إذ أنه لم يثبت لدينا أن لابن نظيف أخاً ، فهو لم يتحدث إلا عن نفسه وعن أولاده ، كما سنرى في الحديث القادم ، ومن ثم يبدو لي أن الملك الأشرف أخا الملك الحافظ ، هو المقصود هنا ، فنحن نعرف أنه كان في هذا الوقت عينه مقيما بأرجيش ، وذلك بعد عودته من معركة ياصجمن ، التي انتصر فيها مع حليفه علاء الدين كيقباذ ، سلطان الروم السلجوقي ، على جلال الدين منكبرتي ، واستقبل رسول خواجاجهان ، وزير هذا الأخير ، في صبيحة اليوم التالي لعيد النحر ، مثلما ورد في نفس الصفحة . فلا يستبعد إذن أن يكون الأشرف قد خلع على وزير أخيه وكاتبه ، خاصة وأنه كان قد حضر المعركة مع مخدومه .

وليس في الإمكان تحديد المدة التي قضاها ابن نظيف في الاعتقال ، إلا أنه يتحدث عن نفسه للمرة الثالثة والأخيرة في أوائل سنة ٦٢٨ هـ = ١٢٣١ م (انظر ص ٢٠٨ م ومابعدها ، المتن ص ٣/٢٢٦) ، ويروي لنا بعد صفحتين اثنتين قصة إطلاق سراحه ، بما نصه :

« وفيها شفع صاحب الجزيرة بمصنف هذا التاريخ محمد علي بن نظيف إلى الأشرف بمكاتبته إلى مخدومه الحافظ بإطلاقه . فكتب الأشرف في ذلك ، وأمر الحافظ بإعادة جميع ما أخذه له عن آخره ، وأن يحسب جميع ماله ولمماليكه من حين قبض وإلى حين الإفراج عنه ، يعطاه جملة ويضاعف حرمته وما كان له ، «ولا تمكنه من المفارقة ليصل وتحسن إليه » . فقبل

شفاعته وأطلقه بعد تحليفه ألا يفارق خدمته . وجميع ما رد له من جميع ما أخذه له مملوكين كبار (كذا) لا غير وأربعة دواب . وكان في كل وقت يمنيه ويعده ، فأطال عليه ، وخاف من غدره ، فتسحب ليلاً إلى الرحبة من قلعة جعبر ، وجد المولى السلطان المنصور ناصر الدين إبراهيم ، ولي عهد والده فيها ، فأحسن إليه وخلع عليه خلعة جميلة ، وحمل له جميع ما يحتاجه . ورتب له بعد ذلك راتباً معتبراً من طعامه وحلاوة وشمع ومقيم دواب . ثم كاتب الملك المجاهد به ، فوصل كتابه إلى الولاة بتقرير راتب كفايته وزيادة ، وأطلق له أشياء وبسط أمله ، وأمره بالمقام فيها إلى حين وصوله ، فبقي في خدمة السلطان الملك المنصور في أحسن كرامة إلى أن استدعيا إلى حمص ، فتلقى ولده السلطان الملك المجاهد إلى سلمية ، ولقيه المذكور ، فبسط أمله وأحسن إليه ، وأطلق له جملة ، ورتب راتبه الذي كان له بالرحبة ، وأطلقوا له أولاده كلهم على طبقاتهم ، وأحسنوا في حقه إحساناً كثيراً . ونقل بيته إلى تحت ظله بحمص ، ورتب جامكية تكفيه وزيادة مع الإحسان إليه المتتابع أولاً وآخراً ، وكم له مثل هذا مع من يقصده !

إن ما كتبه ابن نظيف هنا يفسر لنا علاقته بالملك المجاهد ، وانتسابه إليه ، وإكباره له ، وإسهابه في تعداد مآثره في مكان آخر (انظر ص ٢٠٤ ب — ٢٠٦ أ ، المتن ص ٢٢٠) ، كما يتيح لنا أن نفهم سبب تسميته لكتابه بـ « التاريخ المنصوري » ، فقد أهداه إلى الملك المنصور ابن المجاهد ، المتوفى سنة ٦٤٤ هـ = ١٢٤٦ م ، اعترافاً منه بفضله عليه ، وإحسانه إليه . أما شفيعه فلم يكن مظفر الدين كوكبوري ، كما ظن

المستشرق الرومي (انظر المرجع السابق ، نفس الصفحة) ، وإنما هو الملك المعظم معز الدين بن سنجر شاه ، صاحب جزيرة ابن عمر ، المتوفى سنة ٦٤٨ هـ = ١٢٥٠ م (انظر الصفدي ، نشر س . ديدرينغ ، ج ٣ ص ١٤٠) ، ولعل منشأ ذلك الظن أن كوكبوري ، صاحب إربل ، يدعى أيضاً الملك المعظم (انظر ترجمته في ابن خلكان ج ٣ ص ٢٧٠ ، وشذرات الذهب ج ٥ ص ١٢٨) ، ولم يعرف عنه أنه قام بسفرة إلى الشام ومصر في ذلك الوقت .. وقد ذكر ابن نظيف زيارة معز الدين بن سنجر شاه لمصر صحبة الملك الأشرف وعودته منها ، من غير أن نفهم منه ما يدل على اعترافه له بصنيعه معه .

لدينا مصدر واحد متأخر ، وهو الصفدي (انظر ج ١ ص ١٧٣ س ١٥ – ١٦) ، أورد اسم ابن نظيف عند ترجمته للصاحب محيي الدين بن ندى الجزري ، المتوفى سنة ٦٥١ هـ = ١٢٥٤ م ، على الشكل الآتي : « ومن الشعراء الذين مدحوه جماعة منهم . . الوزير شرف الدين محمد بن نظيف وزير الحافظ صاحب جعبر » . وقد أغفل الصفدي ذكر المصدر الذي نقل عنه عبارته هذه . وإذا عرفنا أن مؤلفنا كانت له علاقة بالصاحب ابن ندى الجزري ، بغض النظر عن نوعها وطبيعتها ، وأن ابن ندى كان رجلاً فاضلاً عالماً ، يقوم بتدبير ملك الجزيرة ، وحوله عدد من أعيان عصره ، فيهم الشاعر والأديب والمؤرخ ، من بينهم شهاب الدين أبو شامة ، المتوفى سنة ٦٦٥ هـ = ١٢٦٤ م ، يرفق بهم ، ويعطف عليهم ، ويقربهم من مجلسه ، ويلازمهم أبداً . إذا عرفنا ذلك ، جاز لنا أن نفترض أن الصاحب ابن ندى هو الذي التمس من صاحبه الملك المعظم أن يشفع في

صديقه ابن نظيف الحموي، عندما وصله خبر محنته . وفيما عدا ذلك يصعب علينا أن نفهم ما الذي حمل صاحب الجزيرة على إثارة قضية ابن نظيف لدى الملك الأشرف ، ومحاولة التوسط له في الافراج عنه ، اللهم إلا إذا كانت له أيضاً علاقة صداقة بابن نظيف ، لم تحدثنا عنها المراجع التي بين أيدينا . والغريب أن أبا شامة لم يذكر ابن نظيف إطلاقاً ، ومن العسير أن نصدق أنه لم يعرفه أو لم يسمع به على الأقل ، سواء اجتمع به عند ابن ندى أو لم يجتمع ، وسواء صاحبه قبله أو بعده .

عرفنا من هذا أن مؤلفنا لم يكن مؤرخاً فحسب ، بل كان إلى ذلك شاعراً ، مدح بعض معاصريه ، وتقرب إليهم بشعره ، وشكرهم على حسن صنيعهم معه . ولا شك أنه مدح الملك المجاهد وابنه المنصور ، وإن ضاع ذلك الشعر ولم يصل إلينا . ولا نعرف من شعره إلا خمسة أبيات ، قالها في الأمير سيف الدين الهذباني ، وأوردها في مقدمة كتابه « مختصر سير الأوائل » ، (ورقة ٢ م - ٢ ب) وهي :

رجل فاق بالمكارم والعـــد ... ل وإحسانه ملوك الزمان
عـالم عادل رؤوف رحـــيم ... ماجد جامع لكل المعـــاني
يا نصير الأنام يا نا . . . . يا من علا عـــلى كيوان
كن معيني وناصري ومجنّي ... ومعيني على صروف زمـــاني
وابغني بغيتي بفاضـــل نعما ... ك فأنت المنى وكل الأماني

إن هذه الأبيات لتعد دليلًا على ما ذكره الصفـدي عن ابن نظيف الحموي وإثباتاً له ، ويبدو أنه كان يلقب بـ « شرف الدين ، ولكن هذا اللقب لم يرد في أي من كتابيه اللذين حفظتهما لنا الأيام ، ومن الجائز أن

يكون الصفدي قد ترجم له في الأجزاء التي لم تنشر بعد . ولعل ابن نظيف كان إلى جانب هذا كله من رجال الفقه والشرع ، فابن الفرات يصفه دائماً بالشيخ محمد ، ويسميه مرة واحدة بالقاضي (انظر ج ٤ ورقة ٣ ب) ، فيقول عنه : « وقال القاضي محمد بن علي بن نظيف الغساني الحموي في تاريخه الذي ألفه » وهذه النسبة إلى « غسان » لم يرد لها أيضاً ذكر في غير هذا الموضع .

أقام ابن نظيف الحموي مدة في حمص ، لا ندري أطالت أم قصرت، وعلى كل حال فإننا نجده بعد ذلك عند الأمير الاسفهسلار سيف الدين علي ابن أبي علي الهذباني ، المتوفى سنة ٦٣٧ هـ = ١٢٣٩ م (انظر المقريزي ج ١ قسم ٢ ص ٢٨٦ وما بعدها) ، والظاهر أن هذا الرجل ، الذي قال فيه المؤلف الأبيات الشعرية المتقدمة ، قد بادر إلى نجدة ابن نظيف بعد أن طوحت به حوادث الزمن مرة أخرى ، كما يفهم من مقدمة كتابه الثاني (انظر ص ٢ م) التي قضى البلل على بعض كلماتها ، وأكرمه غاية الإكرام ، « وقربه منه » وغمره من إحسانه ما قصر الزمان كثير شكره ، وكثر الامتنان جزيل بره . وكان الأمير سيف الدين وزيراً لصاحب حماة، ولذلك يمكن القول بأن المؤلف قد عاد في آخر الأمر إلى مدينة حماة ولربما يكون قد قضى نحبه فيها ، فنحن لا نجد ما يشير إلى حياته بعد تلك الفترة على الاطلاق .

* * *

آثـــاره :

وجّه ابن نظيف الحموي ، على ما يظهر ، كل عنايته إلى التاريخ، فالمعروف عنه أنه ألف ثلاثة كتب تاريخية ، لم يصلنا منها سوى اثنين .

ولكن هذه الكتب الثلاثة ليست في الواقع غير كتاب واحد ، اختصر مرتين ، واتخذ في كل مرة اسماً مغايراً للأول . وهذه المؤلفات هي :

١ - مختصر سير الأوائل والملوك ووسيلة العبد المملوك .

وتوجد منه مخطوطة واحدة محفوظة بالمكتبة الوطنية بباريس تحت رقم ١٥٠٧ (انظر ده سلين ص ٢٨٧ ، وبروكلمان ط ٢ ج ١ ص ٤٢٨)، ولم تتحدث المصادر العربية عن هذا الكتاب . وقد بدأ بكتابته سنة ٦٣٣هـ=١٢٣٥ م - ١٢٣٦ م ولعلها هي السنة التي ترك فيها حمص وعاد إلى حماة . قال في الورقة٣ ب « من عهد التناسل إلى هذه السنة وهي سنة ثلاث وثلاثين وستمائة » ، إلا أنه عدل عن هذا التاريخ بعد بضعة أسطر ليقول : « إلى أول سنة أربع وثلاثين وستمائة » . وقد ألفه لسيده الجديد ، الذي ورد اسمه في الصفحة ٢آ « عندما عرف أنه المقام العلي وأنه المولى الأمير الاسفهسلار الكبير العالم العادل الورع المجاهد سيف الدين علي بن الأمير السعيد عز الدين حسن بن أبي علي .. فالمملوك باسط القول شكرا ...(ص ٢ب) وجامعاً له تاريخاً مختصراً ليكون مصاحباً له عند أسفاره لا سفاره ، مرتاضاً به عند تكراره وتذكاره ، مشتملاً على ذكر الاختلاف في عدة السنين من ابتداء التناسل إلى الهجرة النبوية .. وما تجدد بعدهـــا من الحوادث والوقائع الكوارث ، وبالغت في اختصاره غاية الاختصار ، لكيلا ينتهي به طول إلى ملل أو إضجار ، وسميته : « مختصر سير الأوائل والملوك ووسيلة العبد المملوك » .

وعدد أوراق هذه المخطوطة لا يزيد عن ١٨٩ ورقة ، وكان المفروض أن تكون أكثر من ذلك . لأن المؤلف كان أشار إلى خطته (ص ٧٨ ظ)

بقوله : « ثم نتمم ما شرطناه من إتمام التواريخ والدول إلى الآن ، ولكنها تنتهي بسنة ٣٢٣ هـ = ٩٣٥ م في خلافة الراضي ، وهي تتألف من جزئين ، يستغرق الجزء الأول منها ١٦٥ ورقة ، وينتهي بانتهاء خلافة المهتدي ، ويبتدىء الجزء الثاني بخلافة المعتمد ، وينتهي بعبارة « وتوفي الراضي ، بعد أشياء جرت في خلافته يطول شرحها وقد شرطنا الاختصار ؛ ليلة السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول تم » . والظاهر أن ظروفه قد حالت بينه وبين إتمامه ، بل لعله اكتفى بهذا بعد أن طال الكتاب ،وهو لما يتجاوز أوائل القرن الرابع الهجري ، وقبل أن يكتب عن الراضي القدر الذي كتبه عمن سبقه من خلفاء بني العباس . وإذا لم تكن هذه المخطوطة قد كتبت في عصر المؤلف ، فهي قريبة من عصره ، فقد اشتراها شخص يدعى ابن الخطيب الأربلي الهذباني ، ورد اسمه في الصفحة الأولى من كلا الجزئين ، سنة ٦٨٣ هـ = ١٢٨٦ م .

وابن نظيف يتحدث في هذا الكتاب عن تاريخ ما قبل الاسلام ، ويذكر الخلفاء الراشدين ، وخلفاء بني أمية ، وبني العباس على التوالي ، ثم يعود (ص ١٧٨) « إلى سياقة السنين من الهجرة النبوية ، زادها الله شرفاً ، ليعلم ذلك سنة سنة ، ليسهل على من يشتهي كشف تلك السنة على ما يقع له في أعجل وقت وأقربه » .

والجدير بالذكر في هذا المقام أن الصفحات السبع والخمسين الأولى من « التاريخ المنصوري » التي تحدث فيها ابن نظيف عن تاريخ ما قبل الاسلام وعن « سياقة السنين » ، على حد تعبيره ، قد وردت بكاملها في أماكن متفرقة من « مختصر سير الأوائل » . وفي هذا دليل على أن

للكتابين أصلاً واحداً ، هو تاريخه الكبير الضائع ، والفرق الوحيد بينهما يتمثل في أن الأخير فيما عـدا ذلك أوفى وأشمل من المنصوري ، الذي يتقيد بتلك « السياقة » ويلتزمها حتى النهاية .

* * *

٢ ـ الكشف والبيان في حوادث الزمان :

لعـل هذا الكتاب أهم ما كتبه المؤلف ، وهو للأسف مفقود ، كما سبق أن ذكرت ، ولم يرد ذكره لا في « مختصر سير الأوائل » ولا في غيره من المصادر التاريخية ، وإنما أشار إليه ابن نظيف في « التاريخ المنصوري » نفسه عشر مرات ، يجدها القارىء متناثرة في الكتاب ،وذلك كلما تذكر أنه قد شرط على نفسه الاختصار ، فيقول مثلاً (ص ١٦٥ ب المتن ص ١٤٨/٧) : « وقد ذكرنا هذا وغيره من الوقائع في كتابنا التاريخ الموسوم بالكشف والبيان في حوادث الزمان ، لأن هذا التاريخ في غاية الاختصار كما شرطنا » أو يقول (ص ١٣٦ آ ، المتن ص ٧٩/٨) : « وقد استوفينا ذلك بتفاصيـله في تاريخنا المطول البيان » . وقد تعود ابن نظيف أن يذكر السنة التي يبدأ فيها بكتابة أحد كتبه . جاء في المختصر (ص ١٣ ب) : « ذو القرنين الاسكندر من أول ملكه إلى آخر سنة ثلاث وعشرين وستمائة للهجرة » ، والعبارة نفسها موجودة في المنصوري (ص ١٦ ب) ، إلا أنها هنا « إلى آخر سنة أربع وعشرين » . وقد عد المستشرق الروسي (انظر المرجع السابق ص ١١) هذا التاريخ خطأ ، اعتقاداً منه بأن المؤلف شرع في كتابة « التاريخ المنصوري » بقلعة جعبر وانتهى منه في حمص ، وهذا في نظري شيء مستبعد جداً ، فابن نظيف لم يذكر هنا سنة ٦٢٤ هـ = ١٢٢٧ م إلا لأنه بدأ فيها بكتابة تاريخه المطول

« الكشف والبيان » لا المنصوري ، كما قد يتبادر إلى الذهن . ومن الجائز أن يكون قد ألفه لصاحبه الأول الملك الحافظ ، ثم لم يقدمه إليه بسبب ما طرأ على علاقته به . أما المؤرخ الايطالي أماري فيعتقد من جهته (انظر الملحق الثاني للمكتبة الصقلية ، ط لا يبزيغ ١٨٨٧ ، ص ٧) أن ابن نظيف قد انتهى من كتابة « الكشف والبيان » في قلعة جعبر ، غير أن الواقع يخالف ما يرتئيه بهذا الصدد ، فالمؤلف يشير إلى كتابه الكبير في حوادث سنة ٦٣٠ هـ = ١٢٣٣ م ، عند حديثه عن مظفر الدين كوكبوري، بقوله (انظر ص ٢٢٣ م ، المتن ص ٢٥٣ / ٢) : « وجرى في موته ما قد استوفيناه مشروحاً في تاريخنا الكبير » . ونحن نعلم أنه كان في تلك الفترة مقيماً بحمص تحت ظل الملك المجاهد ، فالأرجح إذن أن يكون قد انتهى منه في هذه المدينة .

ولا شك أن « الكشف والبيان في حوادث الزمان » كان جامعاً وافياً ، وإذا أردنا أن نتأكد من ذلك ، فما علينا إلا أن نرجع إلى ابن الفرات ، الذي ينقل عنه أشياء لا نجدها في المنصوري ، دون أن يذكر اسم الكتاب ، بل لعله ذكره في الجزء الضائع من تاريخه أو في الأوراق المفقودة من الجزئين الرابع والخامس . وقد ذكر حاجي خليفة (انظر كشف الظنون ، ط استانبول ١٩٤٣ ، ج ٢ ص ١٤٩٦) كتاباً تاريخياً بعنوان « الكشف والبيان في معرفة حوادث الزمان » ، رأى البعض أن له علاقة بكتاب ابن نظيف ، ولكني لا أميل إلى الأخذ بهذا الرأي ، إذ إن حاجي خليفة نقله عن البوني ، المتوفى سنة ٦٢٢ هـ = ١٢٢٥ م ، أي قبل أن يضع المؤلف كتاب الكشف والبيان .

* * *

٣ ـ التاريخ المنصوري ، تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان :

وهو هذا الكتاب الذي نقدمه للباحثين والمتخصصين . وتوجد منه نسخة يتيمة محفوظة بمكتبة المعهد الشرقي بمدينة لينينغراد ، رقم ١ م ١٥٩ (انظر بروكلمان ، ط ٢ ج ١ ص ٤٢٨ ، تكملة ج ١ ص ٥٩١) ، من مجموعة روسو ، الذي كان قنصل فرنسا في حلب الشهباء في أوائل القرن الماضي (انظر غريا زنيويج ، المرجع السابق ص ٦) . وقد شرع المؤلف في كتابة « التاريخ المنصوري » سنة ٦٣١ هـ = ١٢٣٣ م ، حيث أخبرنا هو نفسه بذلك . قال في الصفحة ٢ ب : « إلى هذه السنة وهي سنة إحدى وثلاثين وستمائة » ، وبعد أسطر (ص ٢ ب ١٣) نجد عبارة « إلى أول سنة إحدى وثلاثين وستمائة » . وانتهى منه في السنة نفسها في أقل من شهرين ، نظراً لأنه اختصره من كتابه الكبير . قال (ص ٢٢٥ ب ، المتن ص ٢٥٨ / ١٢) : « فهذا جميع ما قد وقع في الاختصار من المتجددات إلى آخر هذا التاريخ ، وهو في ثاني عشرين (كذا) صفر من سنة إحدى وثلاثين وستمائة » . ثم أضاف إليه ثلاث صفحات أخر ، تشتمل على أحداث وقعت في خلال الأربعة أشهر التالية على أغلب الظن .

* * *

اهتمام المستشرقين بابن نظيف

لقد اهتم المستشرقون بـ « التاريخ المنصوري » في غضون القرن الماضي ، وعرفوا ما له من أهمية ، فاستعمله د . نشفولصون مصدراً في كتاب له ، أصدره عن الصابئة سنة ١٨٥٦ ، كما نشر المستشرق بارون فون روزن وصفاً لمخطوطته ضمن فهرس المخطوطات العربية المحفوظة بالمعهد

الآسيوي في بترسبورغ عام ١٨٨١ . وفي سنة ١٨٨٧ أخرج المؤرخ الايطالي ميشيل أماري مقتطفات من المنصوري باللغة العربية ، تتعلق بالحملة الصليبية الخامسة وبتاريخ صقلية أيام الامبراطور فريدريك الثاني ، وكان قد ترجمها إلى لغة بلاده ونشرها في مجلة الأرشيف التاريخي الصقلي عام ١٨٨٣ — ٨٤ (السنة الثامنة والتاسعة) . وقد وقعت له أخطاء فيما نشره بالعربية .

وقبل سنوات نشر المستشرق الرومي بطرس غريازنيويج ، الذي سبق ذكره ، صورة طبق الأصل لكتاب ابن نظيف (انظر التاريخ المنصوري ، معهد الدراسات الشرقية ، أكاديمية العلوم للاتحاد السوفياتي ، آثار الآداب الشرقية، السلسلة الكبرى للنصوص ١١ ، دار النشر للآداب الشرقية ، موسكو ١٩٦٠) مع مقدمة باللغة الروسية وفهارس عامة . وليس في الإمكان مراجعة أسماء الأعلام والأماكن التي حققها ، لأنه لم يذكر المراجع التي اعتمد عليها في ذلك ، وتحتوي تلك الفهارس على أخطاء بارزة ، بحيث أن بعضها تشويه لأسماء الأعلام والأماكن .

وفي السنة نفسها ترجم المستشرق الأستاذ ه . ل . غوتشالك ، مستعيناً بترجمتي الخاصة ، مختارات من المنصوري ، تتعلق بمعركة باصجمن والاستعداد لها ، نشرت في مجلة العلوم الشرقية التي تصدر في فينا (انظر العدد ٥٦ (١٩٦٠) ص ٥٥ ٦٧) .

* * *

وصف المخطوطة :

تحتوي مخطوطة المنصوري الوحيدة على ٢٢٧ ورقة ، بحجم ١٥×٢١٫٥ ، وفي كل ورقة ١١ سطراً ، باستثناء الصفحات الثلاث التي أضافها المؤلف

بعد انتهائه من الكتاب ، فهي تتراوح بين ١٣ و ١٤ سطراً . وهذه النسخة مكتوبة في النصف الأول منها على التقريب بخط النسخ الواضح الجميل ، وتكاد تكون مشكولة شكلاً تاماً ، ولكن ابتداء من ص ١٦٠ ب يقل الشكل تدريجياً ، وتبدو آثار البلل والرطوبة في أعلى الصفحات بصورة أوضح ، لا تلبث أن تشمل جزءاً من الأسطر الأولى ، وتطمس بعض حروفها وكلماتها ، بحيث تصبح القراءة متعذرة أحياناً . هذا بالاضافة إلى أن الخط يفقد جماله ووضوحه شيئاً فشيئاً ، مما يدل على أن الكاتب ؛ ولعله المؤلف نفسه ، أراد أن ينتهي من نسخ الكتاب في فترة زمنية معينة ، فاضطر إلى الاسراع بالكتابة وربط الحرف بالذي يليه كيفما اتفق وإلى قلب الصفحة ومواصلة الكتابة على الصفحة التالية قبل أن تجف الأولى ، فنتج عن ذلك اختلاط الكلمات بعضها بالبعض الآخر واختفاء أجزاء منها . وقد تهاون كاتب النسخة في الإعجام تهاوناً كبيراً ، فهناك كلمات كثيرة وردت بدون نقط أصلاً . ولم يرد في الصفحة الأخيرة ما يرمز إلى تاريخ الانتهاء من كتابتها ولا ما يشير إلى اسم الناسخ بصورة من الصور ، وكل ما جاء فيها هو عبارة مضطربة هي « بلغت جملة عدة أوراقه عدد ٢٢٧ » وكتب في أسفلها بخط مختلف :

« الله الموفق وبه نستعين . توفي الأمير الأجل ... إلى رحمة الله تعالى العبد الفقير زين الدين يعقوب بن ... المعروف بابن الداده المجاهدي المنصوري رحمه الله تعالى في الربع الأول من الليلة التي .. عن صباح يوم الثلاثاء في العشر الأول من شهر ربيع الأول سنة أربع وأربعين وستمائة عن الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام رحمه الله ورحم من

ترحم عليه وعلى والده ورحم الله جميع المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والحمد لله وحده » .

وهذه الكلمات ، التي ملأت الصفحة الأخيرة بأسرها ، قد كتبت ولا شك في زمن متأخر ، والظاهر أن هذا الرجل كان بناء ، تم على يده بناء بعض البنايات ، فقد ورد اسمه مكتوباً على إحداها (انظر الفهرس التاريخي للكتابات العربية ؛ ج ٢/١١ ص ١٥١ رقم ٤٣٢٦) وربما يكون قد كتبها أحد أقربائه أو المعجبين به ، ويلاحظ هنا أنه أيضاً « مجاهدي » مثل ابن نظيف !

أما في الصفحة الأولى فقد ورد فيها اسم الكتاب واسم مؤلفه وتحته كلمة « رحمه الله » ، مما قد يدل على أن هذه الجملة قد أضيفت بعد موت المؤلف ، ذلك أن هناك هوامش كثيرة ، أثبتت بعد مراجعة النص على الأغلب ، على أطراف الصفحات مع الاشارة إلى مكانها في المتن مرة ، وإهمال ذلك مرة أخرى ، وفي حالات نادرة تضاف بين السطور . ومن بين تلك الإضافات عبارة شخصية وردت بين السطرين ٧ و٨ في الصفحة ١٩٩ ب ، هي قول المؤلف : « أعني لصاحب أرزن الروم » ومنها أيضاً أن المؤلف تحدث عن تخريب الملك الكامل لبعض القلاع بعد استيلائه على آمد في صلب المتن (انظر ص ٢١٦ أ - ٢١٦ ب) ، ثم ذكر ذلك مرة أخرى بهامش ص ٢١٩ ب ، من غير أن يشير إلى مكانه في النص بأية علامة . فمن الجائز إذن أن تكون العبارة السابقة قد ألحقت باسم المؤلف بعد موته ، ولكنه يصعب من جهة أخرى الاتيان برأي قاطع في هذا الأمر .

وليس بنسخة المنصوري خرم أو نقص ، رغم ما ذهب إليه المستشرق الروسي (انظر المرجع السابق ص ٢٠) من أن هناك بضع ورقات ناقصة فقد ادعى مثلاً ضياع ورقتين بين ١٥٥ ب و ١٥٦ م ، حيث يقول المؤلف : « والرسل ترد عليها (١٥٦ م) من الأطراف » ، إلا أن هذه الجملة نفسها قد وردت في تاريخ ابن الفرات (انظر ج ٥ ص ١٧٤ ب) .

ولا بد من الإشارة هنا إلى أني تركت القسم الأول من المنصوري ، لأنه بدا لي قليل الأهمية ، فابن نظيف لا يقدم أكثر من قائمة بأهم الأحداث وأسماء الوفيات ، سبق أن ذكرها غيره من المؤرخين وتحدث عنها بصورة أوفى وأكثر تفصيلاً ، ولذلك أهملته ولم أحفل به . أما القسم الذي يبدأ بموت صلاح الدين فإن ابن نظيف يبدو فيه أكثر اعتماداً على نفسه منه على غيره .

* * *

مصادر المنصوري وأثره :

لقد رجعت إلى جميع المصادر المتوفرة لدي ، من معاصرة وغيرها ، علني أهتدي إلى المراجع التي استقى منها ابن نظيف مادة تاريخه ، ولكن البحث أعياني ، دون أن أصل إلى ما يدل على أنه ينقل عن مصدر معين وإذا كان قد ذكر في كتابه « مختصر سير الأوائل » أسماء البعض ممن نقل عنهم هناك ، كالواقدي والمدائني وابن الكلبي وغيرهم ، فإنه هنا لم يذكر شيئاً من ذلك إطلاقاً . فهو إما أن يكون قد اعتمد على الروايات الشفهية وعلى ما شاهده هو بنفسه ، وإما على مصادر معاصرة مفقودة ، سيما وأن مقامه كاتباً ووزيراً كان يسمح له بالوصول إلى النادر من الكتب والهام من الوثائق التاريخية . فقد حفظ لنا المؤلف قسماً من تلك الوثائق